أحمد الصافي النجفي

حصاد السجن

وهو ثمار سجن الناظم مدة ثلاثة واربعين يوماً في ادارة
الأمن العام الافرنسية ببيروت بأمر السلطات
الانكليزية سنة ١٩٤١ عند دخولها لبنان



دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

أحمد الصافي النجفي

حصاد السجن

وهو ثمار سجن الناظم مدة ثلاثة واربعين يوماً في ادارة
الأمن العام الافرنسية ببيروت بأمر السلطات
الانكليزية سنة ١٩٤١ عند دخولها لبنان

١٩٥١

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت – لبنان

آثار المؤلف

•

المطبوع

ديوان الأمواج

» اشعة ملونة

» الأغوار

» التيار

» الحان اللهيب

» هواجس

» رباعيات الخيام

» هزل وجد — نثر

المعدّ للطبع

ديوان اللفحات

» الشرر

الإهداء

•

الى كل سجين ومرشح للسجن

في

سبيل الحرية والواجب

احمد الصافي النجفي

مقدمة

بقلم الأديب الكبير الاستاذ رئيف خوري

وهي دراسة تحليلية عن شعر السجون عند
شعراء العرب ثم عن ديوان « حصاد السجن »

●

لئن اسجن فما الاقفاص الا   لليث الغاب ، او للعندليب
ألا يا بلبلاً سجنوك ظلماً   فنحت لفرقة الغصن الرطيب
ويا ليث الشرى سجنوك مثلي   لدن خافوا وثوبك أو وثوبي !

الصافي

فاذا لم أَحترق أنا
ولم تحترق أَنت
ولم يحترق هو
فكيف يخرج من هذه الظلمات نور ؟

ناظم حكمت

(سجين اثني عشر عاماً)

« حصاد السجن » ...

عهدنا بالحصاد يكون حبّاً فاذا هو هنا أزاهير وثمار من صور وافكار وعواطف نبتت ونضجت بين جدران اربعة موحشة في هضبات وصروح من نفس الشاعر ، فضمها ودفعها الينا مرتبة على هذه الاوزان والقوافي وفيها من غذاء الذوق وقوة الروح ما يكون في الحب من طعام الأبدان .

وليس بغريب ان يكون السجن وجدرانه الحالكة حقلاً « يحصد » فيه الشاعر مثل هذا الحصاد المعنوي المبارك . فقديماً كانت السجون مهداً ، لولادة الروائع تتمخض بها النفوس الشاعرة . وأي مجال احق من هذا المجال بان نستعرض فيه ولو مسرعين بعض تلك الروائع التي كان من حظها قديماً في تاريخ الادب العربي أن تبصر النور في دياجير السجون ...

عدي بن زيد العبادي

ولعل اول شاعر عربي في قافلة السجناء ممن ذكرهم تاريخ الادب : عدي بن زيد . كان تميمياً نصرانياً من اهل الحيرة ، ولذلك عرف بالعبادي [1] توفي في الجاهلية حوالي السنة ٥٩٠ م ، قبل الهجرة بنحو خمسة وثلاثين عاماً . وكان من جلة العلماء ورجال السياسة والفروسية في عصره ، اتقن الفارسية مع العربية وبرع في ركوب الخيل والرمي بالنشاب واللعب بالصوالجة ، وتولى المناصب الرفيعة في بلاط الاكاسرة في المدائن ثم في بلاط

(١) العباديون : لفظ اطلق على نصارى الحيرة .

المناذرة في الحيرة. فكتب بالعربية في ديوان كسرى انو شروان ثم في ديوان ابنه هرمز، حتى استوزره الملك النعمان وزوجه ابنته هنداً، ولكن الوشايات والدسائس، أوغرت عليه صدر الملك فاعتقله وحبسه في «الصِّنِّين»[1] ثم قتله قتلة وحشية. وقد نظم عديٌّ خير شعره في هذه المدة بين دخوله السجن ومصرعه. وشعره كله شكوى موجعة يرفعها الى النعمان، وتذكير له بما خدمه فاخلص في خدمته، وتأكيد لبراءته مما نسب اليه. ويجيد عديٌّ في هذه الاغراض كلها، فيقول من قصيدة بائية:

ألا من مبلغ النعمان عني — وقد تُهوى النصيحة بالمغيب
أحظي كان سلسلة وقيدا — وغلّا، والبيان لدى الطبيب
أتاك بأنني قد طال حبسي — ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتي مقفر الارجاء فيه — ارامل قد هلكن من النحيب
فان أظلِمْ فقد عاقبتموني — وان أُظلَمْ فذلك من نصيبي!

ويقول واصفاً زيارة امه له في السجن ومحرضاً أهله على إنقاذه:

ولقد ساءَني زيارة ذي قربى حبيب لودنا مشتاق
ساءَه ما بنا تبين في الأيدي وإشناقها الى الاعناق
فاذهبي يا اميم غير بعيد لا يؤاتي العناق من في الوثاق

---

(١) من الاماكن القريبة الى الحيرة، ولا يزال تلا مرتفعاً قائماً الى الآن بالقرب من الحيرة ويسمى الصنين.

وهذا الصنين هو الذي يقول فيه الشاعر الجاهلي وهو يتمنى نزهة مترفة من العهد القديم حيث يقول:

ليت شعري متى تخب بي النا — قة بين السدير فالصنين
محقباً ركوة وخبز رقاق — وبقولا وقطعة من نون

واذهبي يا أميم ان يشأ الله ينفّس من ازم هذا الخناق
او تكن وجهة فتلك سبيل الناس، لا تمنع الحتوفَ الرواقي!
يا ابا مسهر فابلغ رسولا اخوتي ان أتيت صحن العراق
ابلغن عامراً وابلغ اخاه انني موثق شديدٌ وثاقي
في حديد مضاعف وغلول وثياب منضحات خلاق
فاركبوا في الحزام فكوا اخاكم ان عيراً قد جهزت لانطلاق

ولكن أجود ما نرى عند عدي من شعر نظمه في السجن ذاك الذي يخلص فيه الى استعراض عز الملوك وجبروتهم وكيف انقرضوا على تقلب الزمن وأحداثه، فيقول :

اين كسرى الملوك، كسرى انو شروان، أم اين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهمُ مذكور

الى قوله :

ثم صاروا كأنّهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

وفي هذا البيت الأخير صورة رائعة لتمثيل فناء الاشياء. وربما بلغ حظ هذه الصورة من الحياة ان يوشك قارىء البيت أن يشهد بام عينيه ويسمع باذنه، من خلال اللفظ، كيف يطاير هذا «الورق الذي جف» وكيف يخش في مهب الرياح.

ومع ذلك فان شعر عدي يغلب عليه الانكسار والاستسلام، وتعوزه روح التحدي والعناد للاضطهاد.

الحطيئة

فاذا اقبلنا على عصر الراشدين لقينا في قافلة الشعراء الذين

سجنوا ، ونظموا في السجن ، شاعراً محبب الشخصية على علاتها ، هو الحطيئة ... اعتقله الفاروق عمر بن الخطاب وأودعه السجن عقوبة له على ما نهش بلسانه من أعراض بعض القوم طمعاً في كسب العطاء . فانشد الحطيئة لهذه المناسبة ابياتاً رقيقة ذكر فيها بنيّاته ، وما يقاسين من حرمان وهوان ، واستعطف الخليفة حتى رحمه وأطلقه . وهذه ابيات الحطيئة :

ماذا تقول لافراخ بذي مرخٍ زغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجر
أهلي فداؤك كم بيني وبينهمُ من عرض داوية يعمى بها الخبرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر !

وما كان مثل هذا الشعر العذب ليقطر من نفس الحطيئة لولا بنيّاته ولولا أن منعه السجن عنهن !

يزيد بن مفرغ

ولكننا حين ندخل العصر الاموي نظفر من شعر السجون بما هو حقاً أوفر مادة وانفس معنى من كل هذا الذي سبق لنا أن حظينا به . ولنكتف بشاعر واحدٍ يُعد من الفحول في هذا الباب ، نقصد يزيد بن مفرغ . وللقارىء ان يستغرب هذا الاسم وله أن يعجب كيف عددناه من فحول شعراء السجون . غير ان القارىء لن يلبث حتى يقتنع بصواب رأينا فيه . فان الخمول الذي احاط ، من بعد ، باسم يزيد بن مفرغ إنما كان لسخط الاوساط الحاكمة عليه . وان فقدان شعره الا بقية مذرذرة في بطون الكتب ، اشبه باخشاب السفينة المحطمة - إنما كان كذلك نتيجة

لهذا السخط الرسمي الذي صرف عنه الرواة خشية الحاكمين أو مسايرة لهم .

كان يزيد بن مفرغ ، هذا ، حميرياً من عرب اليمن ، اتصل بواحد من أبناء زياد بن أبيه اسمه عبّاد. ووُلي عباد اقليم سجستان فصحبه الشاعر الى موضع عمله . ولكن الجو سرعان ما فسد بين الرجلين ، فعبّاد والٍ ، وشقيقه عبيد الله والٍ هو الآخر يتصرف بشؤون العراق،ومرتبة زياد بن ابيه وابناء زياد معروفة في الدولة الأموية بعد ان سبق لمعاوية ان اعترف بزياد أخاً له . وما كان يزيد بن مفرغ ليرضى من عبّاد ان يستطيل عليه أو يهمله . فهجاه وسخر من لحيته وكانت عظيمة جداً كأنها جوالق ، دخلتها الريح يوماً فنفشتها فقال فيها ابن مفرغ :

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً　　　فنعلفها خيول المسلمينا !

فلما سمع عبّاد بالهجاء أضمر له الشر ، وحرّك على الشاعر قوماً لهم عليه دين فرفعوا عليه الدعوى ، فحبسه عبّاد حتى يدفع الدين. واذا بالشاعر يضطر أن يبيع فرسه وسلاحه وأثاثه وغلاماً وجارية كان يهواها . واشترى عباد الغلام والجارية . وأمر بتوزيع مال الشاعر على دائنيه . ثم أطلق الشاعر ليعود من حيث أتى خاوي الوفاض بادي الأنفاض . فانطلق ابن مفرغ الى العراق ثم الى الشام يتنقل في المدن ويرسل الاشعار في هجاء زياد واولاده . وتحدث الناس كثيراً بهذا الهجاء ، وبلغ مسامع عبيد الله بن زياد في البصرة ، فبث عيونه واعوانه في طلب الشاعر. ولم يكن يزيد يجهل ما ينتظره اذا وقع في قبضة عبيد الله. فأقام هارباً ما وسعه

الهرب . ثم سعى في ان يستجير بهذا او ذاك من وجوه زمانه ، وكلهم يخشى ان يجيره على عبيد الله ، حتى لقي آخر الأمر رجلاً يقال له المنذر العبدي كانت بنته زوجة لعبيد الله. على ان عبيدالله لم يكرم عمه فكبس داره ، وأخرج الشاعر فعذبه بألوان العذاب وشهره باقبح ضروب التشهير . قرنه بهرة وخنزيرة وأطافه في الأسواق ومن حوله الصبية يعبثون به ، وسجنه مدة وأشبع السياط وأطعم حديد القيد من لحمه وكسر اسنانه ، ثم اعاده الى أخيه عبّاد في سجستان . ومما يحكى أن الشاعر كان قد كتب بالفحم على جدران بعض الخانات التي مر بها في طريق عودته إلى سجستان اشعاراً من هجوه في زياد واولاده ، فأمره من كان يخفره من شرطة عبيد الله ان يحكها باظافره فحكها حتى بريت وتهرأت اطراف انامله وبضت دماً. فاستعظمت اليمانية هذا الانتقام البشع، ورفعوا الأمر الى معاوية في الشام. فاستقدم يزيد بن مفرغ وعنفه ثم خلى له سبيله وخيره في المقام فاختار ارض الموصل وبها كانت وفاته سنة ٦٩ ﻫ (٦٨٨ م) .

أما شعره في السجن فلم نعثر منه الا على قصيدة لامية نظمها وهو في سجن البصرة لدى عبيد الله بن زياد . وهي قصيدة قوية في معناها تشف عما أوتي هذا الشاعر المتمرد من قوة النفس وتحدي الاضطهاد . تساءل في مطلعها : كيف نوم الأسير في قيوده ، ثم ذكر جاريته التي حيل بينه وبينها ، وفرسه وسلاحه ، فتألم للذكرى ، وثار به إباؤه فنفى أن يكون اتى امراً دنيّاً ، ثم أسرع الى مخاطبة الوالي عبيد الله فعيره كيف نكل به ذلك

التنكيل القبيح ، وأنذره بأن آثار ذلك التنكيل كله عَرَض يزول بينما يخلد الشعر الذي هجاه به وترسخ وصمته في ذكراه ابد الدهر . ولعمري إنه من اروع المعاني التي خاطب بها شاعر سلطاناً ظالما . قال يزيد بن مفرّغ :

دارَ سلمى بالخبت ذي الاطلال　　كيف نوم الاسير في الاغلال؟
اين مني السلام من بعد نأي ؟　　فارجعي لي تحيتي وسؤالي
اين مني نجائبي وجيادي　　وغزالي ؟ سقى الاله غزالي !
أين ؟ لا أين ، جُنتي وسلاحي　　ومطايا سيرتها لارتحالي
لا وصومي لربنا وزكاتي　　وصلاتي أدعو بها وابتهالي
ما أتيت الغداة امراً دنياً　　ولدى الله كابر الاعمال
أيها المالك المرهّب بالقتل　　بلغت النكال كل النكال
فاخش ناراً تشوي الوجوه ويوماً　　يقذف الناس بالدواهي الثقال
قد تعديت في القصاص وأدركت ذحولاً لمعشر اقتال
وكسرت السن الصحيحة مني　　لا تذلني فمنكر اذلالي
وقرنتم مع الخنازير هراً　　ويميني مغلولة وشمالي
وأطلتم مع العقوبة سجناً　　فكم السجن ؟ او متى إرسالي ؟
يغسل الماء ما صنعت وقولي　　راسخ منك في العظام البوالي

* * *

ليت أني كنت الحليف للخم　　وجذام وطيىء الاجبال
بدلاً من عصابة من قريش　　أسلموني للخصم عند النضال
خذلوني وهم لذاك دعوني　　ليس حامي الذمار بالخذال

ويبدو من الثلاثة الابيات الاخيرة ان الشاعر اقدم على هجو

زياد واولاده بايعازٍ وتأييد من قريش . ولكن قريشاً تخلت عنه عندما ظفر به الوالي وصبّ عليه عذابه .

فهذه هي قصيدة ابن مفرّغ . مثال نادر من شعر السجون في الادب العربي القديم لانها تشق نغمةً جديدة غير نغمة الانكسار والاستعطاف وتعزية النفس بان كل شيء زائل وكل سرور صائر الى نكد وبلاء .

عبد الله الطالبي

وفي الفترة بين انهيار الامويين واستتباب الامر للعباسيين يمرّ شاعر عربي في قافلة شعراء السجون ما ينبغي لنا ان ننساه ، ذلك هو عبدالله الطالبي من أحفاد جعفر الطيار شقيق الامام عليّ ... لم يكن عبدالله هذا رجلًا احترف الشعر وانما كان فارساً زعيماً ظهر بالكوفة فخلع طاعة الامويين ، فقاتله هؤلاء حتى ألجأوه الى بلاد فارس حيث استقل بالسيادة امداً من الدهر وجبي له الخراج وهو بمدينة اصطخر . ولكن ابن هبيرة ، والي الامويين على العراق ، جرّد عليه حملة اكرهته على الارتداد الى مدينة هراة . فلما انقرضت دولة الامويين امر ابو مسلم الخراساني بأخذه وقتله لانه ابى الانصياع للعباسيين ... وأكبر الظن ان هذه الابيات القليلة ، التي انحدرت الينا عن عبدالله الطالبي في السجن فانتشرت في الآفاق وخلدت شهرتها على الاجيال انما قالها وهو سجين في هراة بأمر من ابي مسلم قبل ان قر الرأي على قتله . ومن هنا كانت هذه الابيات تشتمل على لوعة ووحشة قلّ ان عرفناهما في شعر السجون لدى

العرب . فقد ينبغي لنا أن نذكر أن ابا مسلم الخراساني كان حرباً على هؤلاء الامويين الذين جرّد عبدالله سيفه لحربهم . وقد ينبغي لنا ان نذكر ان دعوة الشيعة ودعوة العباسيين كانت يومذاك واحدة على الامويين . فاذا توقع عبدالله الطالبي سجناً واضطهاداً لثورته على بني امية فهو من غير أبي مسلم يتوقع هذا السجن والاضطهاد . ولذلك غلبت على ابيات عبدالله تلك اللوعة والوحشة، وتلك الكآبة العميقة التي لا تدري من تناشد بعد ان لقيت الشر ممن تنتظر منهم الخير فهي اذاً تناشد المروءَة والانسانية إطلاقاً :

الا أحدٌ يأوي لأهل محلة
مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا

وهذه أبيات عبدالله الطالبيّ بكل ما يتململ فيها من حزن محرق وينساق معها من معنى غريب :

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
اذا دخل السجّان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا ، فجلّ حديثنا ... اذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فان حسنت لم تأت عجلى وأبطأت ... وان قبحت لم تحتبس وأتت عجلى
طوى دوننا الاخبار سجن ممنع ... له حارس تهدا العيون ولا يهدا
قبرنا ولم ندفن ونحن بمعزل
عن الناس لا نُخشى فنُغْشى ولا نغْشى
الا أحد يأوي لأهل محلة
مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا

والقارىء في غنى عن أن ندله على مكامن اسرار الجمال في هذا

القصيد ، وعلى عمقه في تمثيل نفسية اولئك السجناء الذين طغى عليهم صقيع من القنوط صرع كل أثر للرجاء في صدورهم . فقوله : « عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا » وقوله : « ونفرح بالرؤيا الخ ... » رائع حقاً تختلج له أغوار الضمائر .

ولكننا نكرر أن هذا القصيد اذا توفر فيه الالم والاغراب في المعاني فقد فاته حظه من التحدي والتمرد على النحو الذي وجدناه في شعر يزيد بن مفرغ ، وعلى النحو الذي نجده في شعر شاعر عباسي ننتقل اليه الساعة هو علي بن الجهم .

علي بن الجهم

وكان ابن الجهم هذا عربياً من اهل بغداد عاصر أبا تمام وتصافيا الود . وفيه يقول أبو تمام أبياته المشهورة في رثائه :

أعليّ يا ابن الجهم انك دفت لي سماً وجمراً في الزلال البارد
لا تهلكن ابداً ولا تبعد فما اخلاقك الخضر الربى بأباعد
ان يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدّر من غمام واحد
او يختلف نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالدِ

وبرغم رقة ابن الجهم والدماثة التي تظهر على غزله ، فلقد كان مرّ النفس صعب الشكيمة عظيم الشجاعة . فلم يكن في طبعه ان يتحمل ضغط السلطان ولا ادلاله . فوقعت النفرة بينه وبين الخليفة المتوكل فحبسه . ولقي ابن الجهم مصرعه في معركة عند حلب نشبت بينه وبين بعض الاعراب حين تعرضوا للقافلة التي كان مسافراً فيها سنة ٨٦٣ م (منتصف القرن الثالث للهجرة .)

وهي قصيدة رائعة تلك التي سبكها ابن الجهم يوم حبسه المتوكل تزخر أبياتها بقوة من عزيمة الشاعر وتشمخ بعلو من شمم روحه. وفيها مثال من اسلوب المناقشة التي شاع في الشعر بشيوع الفلسفة في ذلك العصر مع تعمق في الفكر يبلغ بالشاعر ان يلمس العلاقة بين الاضداد في الوجود وكيف ينقلب الضد الى ضد ويتولد ضد من ضد.

لا ينسحق ابن الجهم تحت وطأة هـــذا السجن الذي حاصره بجدرانه وغمه بظلمته. لا، ولا يسترحم ولا ييأس. ذلك ما تمنعه منه نفسه الابيّة. ولكنه يجبه الذين عيّروه بالحبس فيقول لهم: اذا حبست فهل رأيتم سيفاً لا يغمد؟وهل رأيتم اسداً لا يأوي الى عرينه كبراً بينما تسرح اوباش الحيوانات على الابواب لكسب القوت؟ ثم يزداد الشاعر تعمقاً فيهتدي بثاقب فكره الى منافع للسجن وظلمته ومنافع للعذاب ومحنته. فهذا الحجر الصلد الذي تكمن فيه النار لا تنقدح منه ناره الا بالحك العنيف وهذا البدر لولا انه ينحجب لما تجدد وعاد بهياً مشرقاً. وهذه الرماح لولا انها تحمى بالنيران وتُطرق لما استقامت ولما أرهف سنانها. وهـــذا العيش أحوال فمن نعيم ومن شقاء، ولربما كان شقاؤه سبيلاً الى نعيمه. فلا سبب لليأس ما زال مع اليوم غد. ولا داعي للخجل والشعور بالمعرة ما دمت لم تحبس لدناءة ارتكبتها.

وعلى هذا النحو يمضي ابن الجهم حتى يخلص الى مخاطبة المتوكل وقاضيه احمد بن ابي دؤاد. فلا يبخل عليهما بكلمة مدح. ولكنه الى ذلك يعاتبهما عتاباً فيه تأنيب وتوبيخ، ويطالبهما بالانصاف مطالبة

من يعلم ان له حقاً . فيقول للمتوكل : ما دمت ابن عم النبي محمد فأنت اولى باتباع شرعته فلا تقبل بظلم الناس . ويقول لابن ابي دؤاد : كيف قضيت علينا بشهادة من حضر ونحن غائبون ، ولو اننا حضرنا لاظهرنا لك الطريق الاقوم . وفي كل هذا معاتبة كما قلنا بل تأنيب وتوبيخ . وفيه مطالبة بالانصاف يجهر بها من يعلم أن له حقاً يتقوى به على هذا الافحام .

وهذه قصيدة ابن الجهم :

قالوا حبست ، فقلت ليس بضائري حبسي وأيُّ مهند لا يغمد ؟
أو ما رأيت الليث يألف غيله كبراً واوباش السباع تردّد
والنار في أحجارها مخبوءَة لا تصطلى ما لم تثرها الازند
والبدر يدركه السرار فتنجلي أيامه وكأنه يتجدد
والزاغبية لا يقيم كعوبها الا الثقاف وجذوة تتوقد
لا يؤيسنك من تفرّجِ كربة خطب اتاك به الزمان الانكد
فلكل حال معقب ولربما أجلى لك المكروه عما تحمد
صبراً فان اليوم يعقبه غد ويد الخلافة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تغشه لدنية شنعاء نعم المنزل المتورّد
بيت يجدد للكريم كرامة ويُزار فيه ولا يزور ويُحمد !
ابلغ امير المؤمنين ودونه خوف العدا ومخاوف لا تنفد
انتم بنو عم النبي محمد اولى بما شرع النبي محمد
يا أحمد بن ابي دؤادٍ انما تدعى لكل كريهة يا احمد
آن الذين سعوا اليك بباطل اعداء نعمتك التي لا تجحد
شهدوا وغبنا عنهمُ فتحكموا فينا ، وليس كغائب من يشهد

لو يجمع الحصماء عندك منزل   يوماً لبان لك الطريق الارشد!

وقد عارض هذه القصيدة شاعر يقال له عاصم بن محمد الكاتب حين حبسه ابن ابي دلف العجلي القائد العباسي الشهير ، فلم يصنع في معارضتها شيئاً ، وانما ذكر بلاء السجن ونكد العيش فيه وفرغ الى استجداء الصفح والمغفرة بما لا يخرج عن المعاني التقليدية المتدارسة .

وهنا ، فلنثبت ان ابن الجهم انما بلغ بقصيدته ذروة المنهج الذي اختطه يزيد بن مفرّغ في شعر السجون في الادب القديم ، كما بلغ عبدالله الطالبي ذروة المنهج الآخر الذي اختطه عديّ بن زيد العبادي . ويفترق المنهجان في ان أحدهما يقابل السجن والعسف بروح متمردة متحدية ، بينما يقابله المنهج الآخر بروح منكسرة تلتمس العفو والرضى .

ابن المعتز

ولابن المعتز ايضاً - وهو من العباسيين شعر في السجن يستحق أن ننوه به ، قال :

مرت بنا سحراً طير فقلت لها :   طوباك ، يا ليتني اياك طوباك !

وما كان ابن المعتز يرغب في الخلافة ولكن انصاره حملوه على قبولها بعد خلع المقتدر ، غير انه ما كاد يُبَايَعُ خليفة حتى وجد نفسه سجيناً ، ثم قتيلاً ، فغنى شوقه اللاعج الى الحرية بهذه المناجاة المؤلمة للصورة السانحة في الفضاء ...

واذا ذكر الشعراء الذين تمرسوا بالسجن ونظموا فيه فما ينبغي لنا أن ننسى في القافلة أبا الطيب المتنبي . على أنه لم يعرف السجن حقيقةً بجدرانه القائمة وقيوده الثقيلة الا في الدور الاول من حياته وعودُه لم يصلُب بعد ، وعبقريته لم تتفجر ولم تصخب صخبها الاوقيانوسي ... سُجن أبو الطيب على يدي لؤلؤ الاخشيدي والي حمص ، ويقال انه كان قد ذاق السجن من قَبلُ بالكوفة . لكن مهما يكن من شيء فإنا نجد أبا الطيب مقبلاً على سجنه بنفسه الذاهبة شموخاً في السماء . وكان له سجّان ، رجل يدعى ابا دلف يبدو انه لطف بأبي الطيب إبان حبسه لانه لقيه بالامس وصادقه . فنظم فيه ابو الطيب هذه الابيات :

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بي والجوع يرضي الاسود بالجيف
كن ايها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف !

ولقد يبحث المرء طويلاً عن شعر يصور هذه المأساة المفجعة التي تكره النفوس الكبيرة في اوقات المحنة ، ان ترضى ما لا ترضاه في العادة ، فلا يجد ما يشبه قول ابي الطيب : « والجوع يرضي الاسود بالجيف » . ثم قد يبحث المرء طويلاً عن شعر يمثل التحدي للاضطهاد فلا يجد ما يضارع هذا الخطاب الذي فاه به ابو الطيب بصيغة الامر ووجهه الى السجن تعالياً واستخفافاً اذ قال : « كن

ايها السجن كيف شئت !» ... وأما اعتذاره لنفسه بان السجن ليس منقصة لها « ما دام الدر ساكن الصدف » فانه غاية الغاية في الروعة .

غير ان ابا الطيب في هذا الدور المبكر من حياته قُبيل ان يجب عليه سجود الصلاة ، كما يقول ، ما لبث ان ضاق ذرعاً بالسجن وبابه الموصد وما لبث ان برم صدراً بهذا القيد الذي يمضه في رجله وهذا الهزال الذي يستبد بجسمه الناحل ، فشكا ذلك كله الى الوالي واستعطفه بكلام نسبته الى نفس ابي الطيب كنسبة مواء القطط الى زئير الاسود :

أما لِكَ رقي ومَن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء ... والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لمّا براني البلاء ... وأوهن رجليّ ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال ... فقد صار مشيهما في القيود
تعجل فيّ وجوب الحدود ... وحدّيَ قبل وجوب السجود!

لكن ابا الطيب ان لم يتمرس بالسجن حقيقة الا في هذا الدور من حياته ، فهزأ اول الامر بالقيد والسجّان وتحدى الاضطهاد ثم لانت قناته وتحطم عنفوانه ، فانه قد امتُحن فيما بعد - وهو نزيل مصر - بضرب من الاعتقال شر من الحبس الحقيقي حين ضبطه كافور لا يأذن له بالرحيل ولا يلبي رغائبه . وفي هذه المرة لم يتحطم عنفوان أبي الطيب ولا لانت قناته بل انشد في فترة هذا الاعتقال المعنوي قصائد ما رد بمثلها شاعر ، ولا حرض بمثلها شاعر في الادب العربي القديم على حاكم اساء اليه .

نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بشمن وما تفنى العناقيد
ما كنت أحسبني أحيا الى زمن يسيء بي فيه عبد وهو محمـــود
جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود

ابو فراس الحمداني

يبقى شاعر واحد من شعرائنا القدامى اورث في موضوع السجن قصائد كتب لها حظها في الخلود فما يسوغ لنا ان نغفله . هو ذلك الامير الفارس ابو فراس الحمداني . الا ان شأنه يختلف عن بقية شعراء السجن في سالف الادب العربي . فان ابا فراس لم يسجنه خليفته او ملكه او واليه ، بل وقع اسير حرب لدولة أجنبية هي الدولة البيزنطية وذلك في منتصف القرن الرابع للهجرة . وفي مدة من اسره ، الذي طال نحواً من سبع سنوات ، سجنه البيزنطيون وأخشنوا معاملته . وإشارةً الى ذلك يقول معاتباً ابن عمه :

يا واسع الدار كيف توسعها ونحن في صخرة نزلزلهـــا

وليست هذه « الصخرة التي يزلزلها » ابو فراس واصحابه الا الاشغال الشاقة التي فرضت عليهم او القلعة التي حبسوا فيها، قلعة خرشنة او القسطنطينية نفسها .

أسر ابو فراس ووراءه ام عجوز في منبج حضنته يتيماً وفرغت له همها وقلبها فعَلِقَها بما لم يعلق ولد امه . واسر ابو فراس وهو يستميت في القتال تحت لواء الدولة الحمدانية واميرها سيف الدولة ابن عمه . فكان اقل ما ينتظره ان يسرع ابن عمه في بذل الفداء له كيما يعود الفارس الى امه والى رفاقه في الجيش والى اخوانه في

مجالس الادب فيستمتع بالحياة - وهو ما برح فتى يهوى متع الحياة - ويواصل سيرته في الحرب وهو القائد الشجاع .

سوى ان ابن عمه أبطأ وماطل في بذل هـذا الفداء ، لم يصغ الى شفاعة الاخوان ولا رحم ضراعة الام . ولأمر ما فعل سيف الدولة ما فعل . فهل قصرت يده حقاً عن جمع المال لدفعه ، ام رضي بتنحية أبي فراس على هذا النحو لئلا يزاحم على الامارة ابن سيف الدولة وولي عهده ابا المعالي ؟ لسنا ندري . ولكننا ندري ان ابا فراس احس جرحاً ممضاً يتفتح في دخيلة نفسه لهذا الاهمال والتقصير من جانب ابن عمه . واشتاق امه العجوز اشتياقاً محرقا وحن الى اخوانه وملاعب صباه ومسارح شبابه حنيناً لاعجاً مثيراً فارسل القصيدة تلو القصيدة الى ابن عمه يشرح له سوء حـاله في الاسر ويعاتبه عتاب صاحب الدالة وصاحب الحق عليه . وارسل القصيدة تلو القصيدة يدعو فيها امه الى الصبر والاعتصام بالايمان ، او يذكر به اخوانه الباعدين والبعد جفاء .

ولعل ابلغ قصيدة صوّر فيها ابو فراس شقاءه وشقاء اصحابه في الاسر ، وبلغ بها الغاية في قوة العتاب ، لاميّته التي مطلعها :

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرهـا مزعج وأولها

ومنها في عتاب سيف الدولة ولومه على الحياة الرافهة الـتي يحياها بينما يشقى ابن عمه واصحابه في اسرهم لدي العدو :

يا ناعم الثوب كيف تبدله ؟ ثيابنا الصوف ما نُبَدّلُها !
يا راكب الخيل لو بصرت بنا نحمل اقيادنـا وننقلها !
رأيت في الضر اوجهاً كرمت فـارق فيها الجمال أجملها

قد أثر الدهر في محاسنها   تعرفها تارة وتجهلها

وله قصيدة – او مقطوعة من روائع الشعر الغنائي – يباهي بها الحمامة وقد سمعها من وراء جدران سجنه تهدل هديلها الشجي الكئيب برغم أن لها ملء الفضاء حرية ومدى انطلاق. قال من هذه المقطوعة :

ايضحك مأسور وتبكي طليقة   ويسكت محزون ويندب سالِ
لقد كنت أَولى منك بالدمع مقلة   ولكن دمعي في الحوادث غالِ

وهكذا يبدو ان ابا فراس في هذا الشعر الذي ارسله من الاسر إنما دار على المعاني التي تنقر أوتار القلب وتثير الشجن وتناجي شعور الشفقة . ومع ذلك فله التماعات خرج فيها على هذا فتناول ابن عمه بالتوبيخ الشديد لاهماله حقه وحق صحبه ممن وقعوا في الاسر . فلنقرأ مثلاً قوله :

انت سماء ونحن انجمها   انت بلاد ونحن اجبلها
انت سحاب ونحن وابله   انت يمين ونحن أنملها

واننا لنجد في هذه المعاني من نفح الرجولة وقوة المحاسبة، مالا نجده في سائر شعر ابي فراس . فمن عسى ان يكون سيف الدولة او غيره من الحكام اذا هو فرط في حقوق رجاله وتخلى عما يجب لهم عليه ؟ ومثل هذا المعنى كان ينبغي لابي فراس ان يُكثر منه وان يتوسع فيه خلال رومياته او قصائده التي نظمها في اسره وسجنه لدى البيزنطيين .

خلاصة في شعر السجون في الادب العربي القديم

وهنا فلنمسك عند ابي فراس في هذا اللمح السريع الذي

استعرضنا به قافلة من شعراء السجون وشعرهم في ادبنا القديم . ولنلبث هنيهة قبل النقلة الى الديوان الذي قصد بالذات من كتابة هذه المقدمة ، ريثما نجمل تلك الاتجاهات التي اخذ بها شعراؤنـــا القدامى ، مع ما اشتملت عليه تلك الصفات والاتجاهات من نقص وابداع (أو مما نعتبره نقصاً وابداعاً .)

فنستخلص أول شيء ان اولئك الشعراء الذين تمرسوا بالسجون وقالوا فيها الشعر معبرين عن خوالج النفس وسوانح الفكر مما يعرض في هذا الجو وراء قضبان الحديد وفي سلاسل القيود ، قد وقفوا موقفين وانقسموا فريقين :

فمنهم من وصف فنون البؤس والوان العذاب التي يعانيها السجين ، وتنصل من كل ذنب وتبرأ من كل شبهة ، واقسم الايمان المغلظة ، وطلب الرحمة من حاكم يسجنه وحاكم يستطيع انقاذه من السجن ، وشفع ذلك كله بروح سوداوية متشائمة منسحقة مثّلها له عبث الاشياء ومصيرها الى الفناء .

ومنهم (من هؤلاء الشعراء) من تحدى السجن والاضطهاد واثبت ان البلاء محك الرجال وان الشدائد جلاء لجواهر اخلاقهم النفيسة ، وحاسب الحكام الذين دفعوا به الى الحبس محاسبة عسيرة وهددهم بدمغة العار التي تلحق ذكرهم من جراء هذا الشعر الذي يهجوهم به ويقص سيرتهم في الظلم والاستبداد . وهؤلاء الشعراء احب الينا . وشعرهم في مذهبنا ابدع واروع . لانـه يفور من معين هذا الغضب الانساني الشريف على الجور والطغيان .

وهنا ينبغي لنا الاعتراف بان شعراءنا الذين انتهجوا هـــذه

الطريق في شعر السجون هم اقل عدداً .

وثمة نقص يبدو على شعرائنا القدامى ممن نظموا في السجون. فهؤلاء جميعاً ، حتى حين يشددون في محاسبة الحكام وفي إنذارهم لهم ، لا تراهم يصدرون عن الشعور بان اضطهادهم جزء من اضطهاد شعب أو أمة ، ثم لا تراهم يستنصرون هذا الشعب على ولاته المتعسفين . وقد يشذ المتنبي عن هذه القاعدة في فترة اعتقاله المعنوي في مصر . فانه ليخاطب المصريين وانه ليتوخى ثورتهم على كافور ، ولكنه يتوسل الى غايته باسلوب عجيب اذ يلسعهم بسياط التقريع والتحقير فيقنطهم من الخير في انفسهم بدل ان يحيي فيهم الايمان بقدرتهم على التحرر وخلع نير « العبد » .

وثمة ايضاً نقص هو ان شعراء السجون ممن وصفوا فيها انعدام النور وثقل القيود والعفونة والرطوبة وشدة التنكيل لم يخطر لهم ببال ان السجون ما ينبغي لها ان تكون للانتقام ، حتى من المجرمين ، ولكنها لاصلاحهم . فالسجين حتى المجرم الذي يزج به في محبس وقاية للمجتمع من خطره انما يحق له ان يعامل المعاملة التي تصلح من امره وترده الى المجتمع رجلاً نافعاً . على ان هذا المعنى – والحق يقال – اقرب الى ان يعقله العصريون من ان يعقله الاقدمون . ولعل اول من اثار هذا المعنى – ولو من بعد – هو الشاعر معروف الرصافي في قصيدته « سجن بغداد » فانه لا يدافع فيها عن سجين بالذات ولكن عن قضية السجناء جميعاً ؛ يصور تصويراً واقعياً ما يغمر هذا السجن من ظلام وكثافة حرٍ وروائح نتنة ، ويعد ذلك من الظلم الاجتماعي المنشب براثنه في الامة .

ويعجبني من هذه القصيدة الممتعة قول الرصافي :

زر السجن في بغداد زورة راحم لتشهد للانكاد أفجع مشهد
هناك يود المرء لو قــاء نفسه واطلقها من اسر عيش منكد
مقابر بالاحياء غصت لحودهـا بخمس مئين أنفُسٍ او بأزيد
وقد عميت منها النوافذ والكوى فلم تكتحل من ضوء شمس بمرودِ !

- ٢ -

ثم ماذا ، بعد هذا الذي « حصدناه » خلال العصور من شعر السجون في الآداب العربية ، الا ان ننتهي الى هذا الحصاد الذي جمعه شاعر واحد ، معاصر ، خلال ثلاثة واربعين يوما تمرس فيها بآفات السجن - وكدت اقول بوحي السجن .

كان ذلك عام ١٩٤١ والحرب قائمة على قدم وساق بين الحلفاء والمحور . واذا بي اسمع ان صديقي أحمد الصافي النجفي قـد اعتقل - اعتقلته السلطات الحليفة الـتي دخلت سوريا ولبنان بعد عهد الفرنسيين « الفيشيين » .

فاما التهمة الرسمية التي كان بها اعتقاله فإنها شبهة النازية . وأذكر ان ذلك آلمني جداً لانني كنت ولن أبرح عدواً للنازية في اي الصور تمثلت أو أُحدثت . وبرغم أني لا استطيع تأكيداً انني كنت ، او انني انا اليوم ، على وفاق تام مع صديقي الصافي في الرأي السياسي والمذهب الاجتماعي والمفهوم بالقومية والوطنية ، فان ما خبرته من الصافي خلقاً واحساساً وتفكيراً وشعراً يخولني ان أشهد بان معدنه النفسيّ أبعد شيء عن معدن النازية . ولكن سلوك بعض الدول الديموقراطية ، طوال الفترة بـــين الحربين

العالميتين : الاولى والثانية ، جعل عسيراً على كثير من الوطنيين ان يبصروا النازية على حقيقتها نكسة استعمارية وحشية تنزل باهل الارض جملة وبالحضارة عامة وبالشعوب المستضعفة خاصة ؛ نكسة استعمارية وحشية كتب عليها التاريخ الفناء كما كتبه عـــلى كل استعمار . فاذا سمعت الشاعر ينشد اذن في ديوانه مثل هذا الشعر :

واشرفت من سجني عـــلى البحر قائلاً

من البحر يأتينا الخلاص او « البحري »

ورأيته يعلق على ذلك بان « الاستاذ يونس البحري كان ينعش آمال القوميين العرب باذاعاته من برلين » فلا يغرنك هذا الدليل الشكلي على « نازية الصافي » ولا تخل انك لمست لمس اليد « الحقيقة التي تثبت الجرم » ، بل فتعمق الى ما وراء الشكل والعن سلوكاً ديموقراطياً مزعوماً كان من ردّ فعله مثل هذا الشعر وهذا المعنى.

بل فتقدم في هذا الديوان – أو الدُويوين الذي يحلو لي تصغيره حباً واستلطافاً – تجد الشاعر وقد اشتدت وطأة الحرب في الجولة الاولى على المستعمرين العريقين فلوحوا بالحرية للشعوب المستضعفة ، ومنها نحن ، كيف يروعه هذا النفاق نفاق الاستعمار العجوز في أزمته فينشد :

منحونا حرية حين مدّت نحو أعناقهم يـد الجزار

فتدرك ان النازية لم تخرج في ضمير الشاعر عن ان تكون جزاراً . ولكنه يقرّع المستعمرين العريقين لانه لا يرى في تلويحهم بالحرية – وهم في مثل هذا المأزق وعلى شفا ذلك الجرف – الا ضرباً من الكرم في « حالة الاحتضار » ؛ ثم لا يرى في استنصارهم

الشعوب التي استعمروها واستغلوها الا نوعاً من « فرصة موت » يتيحونها لتلك الشعوب اذ يستدرجونها الى الحرب .

والفرق بعيد بين هذا كله وبين النازية .

يبقى ان هذا الحصاد الذي حصده صديقي الصافي من سجنه شهراً وثلاثة عشر يوماً هو حقاً اغزر مجموعة مما نظم شاعر عربي في السجن وأنفس مجموعة ، سعة معنى وغرابة خواطر وصور .

روى الصافي في هذا الشعر قصة نفسه وما عرض في هـــذه الايام الثلاثة والاربعين التي قضاها بين الجدران الموحشة رواية واقعية تتشح فيها الحقائق بسربال الخيال ويمكن تقسيمها عـــلى قصرها - ثلاثة فصول : يدور أولها على السبب الاصيل لدخول الشاعر السجن (وهنا يدرك الشاعر ان مشكلته من مشكلة قومه) ، ويتعلق ثاني فصولها بحياته في السجن ثم بسجنه في المستشفى بعد مرضه ؛ وأما ثالثها فأبيات ارسلها في وداع السجن .

وفي خلال ذلك كله تنتشر عبقرية الشاعر لتلم بكل شيء مما يعاني حوله أو مما يتمرس به في جسمه ونفسه أو مما يتصل بدواعي نزوله هذه الغيابات . فيصف غرفته الواطئة السقف التي « تحب في الضيف القصر » ويفتخر بسجنه اذ « يقضي فيه حق اقوامه » ويعمل على تكسير اصنام المستعمرين ويصف زملاءه في هذا القبر ثم مرضه ونقله الى المستشفى وذلك الشرطي الذي نُصب حارساً عليه « كأنه اعلان على بابه » ، ويصور ثقل هذا الليل الذي يهبط عليه مرهقاً موحشاً بين الجدران الاربعة ، المنضمة عليه كطوق الحصار .

وانه لمن الدعوى الخائبة ان نحاول سكب الجمال الذي تفيض به خواطر هذا الديوان وصوره في سطور من نثر . فالشعر اذا فك نظامه سقط موضع التعجب منه كما يشهد استاذنا الجاحظ . بل لا يغني استشهادنا ببعض ابياته مهما لطفت وراعت فان الايماضة الخاطفة لا تقوم مقام التأمل العميق والامتلاء الطويل . ولكن وجد لنا العذر من قال : ما لا يدرك كله لا يترك جله . فنحن دالون إذاً على خصائص المتعة واسرار الفتنة في هذا الديوان ، ورأسها تلك الروح الفكهة ،التي تشع في اجزائه فتبدّد من وحشة الجو الذي يصوره الشاعر .

لا اعني ان عنصر الالم مفقود في هذا الشعر فانه ينفح ألماً ويلفح غضباً لظلامة الشاعر وظلامة قومه واستبداد المستعمرين . على ان الصافي مسح على ذلك كله بالفكاهة والسخرية ، ولن تجد كالفكاهة والسخرية علامة من علائم عافية الروح وتحدي الاضطهاد والجور .

اصغ الى الشاعر يشرح لك حكاية هذه المفاوضات التي يصح ان نسميها « مفاوضات الدول الاربع » في سبيل الافراج عنه :

حكومة لبنان قد راجعت ... فرنسا لفكي فلم تسطع
وراحت فرنسا الى الانكليز ... تراجعهم ، جلّ من مرجع
وقد راجع الانكليز العراق ... ولليوم بالامر لم يصدع
فقلت : اعجبوا ايها السامعون ، ... ويا ايها الخلق قولوا معي
امن قوتي صرت ام ضعفهم ... خطيراً على دول اربع ؟

فهذا من اوجع السخر الذي انطوى على الجد ، وناهيك بالاستفهام التهكمي الذي يقبل مفاجئاً في خاتمة الابيات !

ثم اسمع قوله :

رمونا كالبضائع في سجونٍ وعافونا ولم يبدوا اكتراثا
رمونا في السجون بلا اثاث فاصبحنا لسجنهم أثاثـــا !

وهذا ايضاً من بديع التخيل الفكه الذي يأخذ الظالمين بقهقهة موجعة لتكديسهم البشر في سجونهم كأنهم اثاث لها لا لحم ودم يحس ويعقل .

ويعجبني من فكاهة الشاعر وسخريته قوله :

حسبت لطول السجن اني في قبر
فان يخرجوني منه آمنت بالحشر

فهذا الايمان بالحشر لهذه المناسبة ظريف حقاً ، واظرف ما فيه انه يسوقه على سبيل « اغراء » من سجنوه بان يطلقوا سراحه ، وهكذا تراه يعبث بهم هذا العبث الرائع .

والمتعة الثانية التي أنت واجدها في هذا الديوان دقة الوصف وغرابة التخيل . خذ مثلاً قصيدته « غرفة ام صندوق » ، وتأمل ذلك التصوير الباهر للغرفة الضيقة وسقفها الهابط . ثم تأمل ذلك التصوير « للشنتة » بعد ما بث فيها حياة من حياته فهي تنطق... تسأله متى السفر ؟ وهي تشكو له كربتها وتبكي .

وناهيك بقوله :

تبكي بعـــين حالهـا ودمعهـــا قد استتر
كادت من الغبار ان تفقد عيناها البصر !

ثم خذ مثلاً آخر على دقة الوصف وغرابة التخيل وروعتـه قصيدة « الواح وأشباح » أو « ملحمـــة السجن » كما سمّاها أو

« معلقة السجون » كما أسميها . والواقع انك اذ تبلغ هذه المعلقة فقد حططت الرحل عند أبدع تحف الديوان وعند أروع تمثيل وابلغ مناجاة جادت بهما عبقرية شاعر عربي لليـل في السجن، وللسجن في الليل ! وغبن ان اجتزىء لك من هذه القصيدة البيت والبيتين فان من حقها ان تقرأ كاملة، ثم تعاد قراءتها مرة ومرة ليتهيأ هذا الجو الصحيح من عمق التجاوب بينك وبينها ؛ هـذا الجو الذي يستحيل من دونه ان ينصف القارىء شعراً او شاعراً.

وبعد ... فكثيرة هي المتع والفتن التي أنت واجدها في هذا الديوان : متع معنوية وفتن عبارية، وهنا اوصيك أن لا تغرك البساطة في اكثر نظم هذا الديوان فان من البساطة ما يكون هو السهل الممتنع وهو السحر المحير . والصافي اشعر شعراً من ان يزيف نظمه لدى عينيك بالزخرف كما يزيف الخرز البراق بدعوى انه الجوهر . يقول الصافي :

ألبست أشعاري لباسي ساذجاً ... كي لا اخادع باللباس الرائي
لم استطع سبق الورى بزخارف ... فسبقتهم ببساطتي الحسناء !

ما أصدق قول الصافي في نفسه !

ولقد سبق لي اول اطلاعي على هذا الديوان ان قلت لشاعره : « هـذا شعر ان فاتني شرف نظمه فلن يفوتني شرف نشره ! » فاذا بي الآن وقد اكرهتني ظروف قاهرة على التنازل عن شرف نشره، أرى حسبي ان اقف بعتبة هذا الديوان آخذ بأيدي رائديه الى داخل عتبة الهيكل وأبقى عندها. ويقيني ان رائديه سيقبلون على الديوان كثيراً وسيوافقونني على قولي انه أغزر مجموعة من

شعر السجون لشاعر واحد في الادب العربي قديمه وحديثه ، بل أنفس مجموعة شعرية في هذا الموضوع تشارك شعراء العرب في افضل معانيهم في هذا الباب ثم تبذهم على الجملة سعة واغراباً وعمقاً.

فانك لواجد في هذا الديوان قبساً من قوة النفس ووميضاً من تحدي الاضطهاد وعزفاً حمساً حاراً في تمجيد التضحية على مذبح الحرية ، ولن تجد ذلك كله مجتمعاً لك عند شاعر واحد من شعراء السجون في ادبنا قديمه وحديثه .

ولكنك – وهنا لابد من التنويه بهذا النقص – لا تزال تحس الشاعر فرداً ليس إلا ، وان هو ادرك ان مشكلته من مشكلة قومه . تحسه فرداً يألم ، وفرداً يغضب ، وفرداً يسخر ، وفرداً يعبث ، وقلّ ان تتراءى لك من أمامه او ورائه ، او عن جانبيه أخيلة من شعب تتحرك ...

فالصافي ما برح في هذا الشعر تغلب عليه الغنائية الفردية .

على ان لهذه الغنائية الفردية روعتها ومنفعتها ايضاً . فالقوت الروحي الذي يغذي فرداً ليتقوى به على مجابهة الظلم جدير كذلك بان يغذي شعباً .

فالى جنود الحرية في مشارق الناطقين بالضاد ، الى اولئك الذين طالتهم او تطولهم أيدي الظلم والاستعمار بالسجن والاضطهاد ، إني أقدم هذا الديوان لما يستطيعون أن يستمدوا منه من عافية وقوة .

رئيف خوري

تكسير الأصنام!

•

اهلًا بسجني لشهر او لأعوام — فانما يوم سجني تاج ايامي
قضّيت حراً، حقوق النفس كاملة — واليوم في السجن اقضي حق اقوامي
ان يسجنوني فجرمي يا له شرفاً — أَني احارب قوماً اهل إجرام
محمد كسر الأصنام شامخة — من لي بتكسير «لوردات» كأصنام
يكفيهم حطة أَن ليس يتبعهم — منا سوى كل منحط ونمام
يا دولة يتساوى في نذالته — جنديها الفدم في مندوبها السامي

غرفة السجن

●

سجنوني في غرفة قد تعرّت   فكأني سجنت وسط القفار
جاعلاً من ترابها لي فراشاً   وغطاء يلفّني من غبار
ثم زادوا على الغبار غطاءً   من نسيج مضعضع منهار
فاذا نمت يكتسي منه وجهي   بغريب الأصواف والأوبار
فتراني في الصبح امضغ شَعراً   وتراباً برغم حلقي َسار
فكأني اكلت نصف فراشي   وكأني شربت نصف دثاري
وكأني والصوف كلل وجهي   نوع وحشٍ ما مر بالافكار

طاب المرض !

●

ضاق بيَ السجن فقلت هل مرض　　ينقذني من شر سجن قد أمضّ
لا غرو ان يهوَ السجين مرضا　　فمن رأى الموت حلا له المرض

لقد توفقت !

●

سجنت وقد مرّت ثلاثون حجة　　من العمر فيها للسجون تشوقت
سعى دعبل للسجن طول حياته[1]　　فخاب، وفي المسعى لسجني توفقت

---

(١) اشارة الى كلمة دعبل المشهورة . لقد مرت علي اربعون سنة وانا احمل خشبتي فلا اجد من يصلبني عليها .

قبر في الجو !

●

سجنوني في غرفة قـد تعالت واطلت عـلى فسيح الفضاء
هي سجن وان تعالت فسجني قفص لي معلق في الهـــواء
قبريَ السجنَ صار، والقبر قبر حفروه في الارض او في السماء

وداع الحرية !

●

من كوة السجن أُلقي نفسي بدون توان
اودّع العيش حــــراً ولو لبضـــع ثوان

المشكلة العظمى !

•

قال الناظم هذه القطعة عندما اشتد عليه المرض في السجن وكان الانكليز يعللونه كل يوم بانهم ابرقوا الى حكومة العراق يسألونها رأيها فيه وقد مرت عليه سبعة وعشرون يوماً وهو يستغيث من الداء وهم لا يسمحون بنقله الى المستشفى ولما اشتدت عليه وطأة الداء انشأ هذه القطعة :

سجنت وقد اصبحت سلوتي — من السقم ، عدّيَ للأضلع
اعالج بالصبر برح السقام — ولكن عــلاجيَ لم ينجع
اتاني الطبيب وولّى سدى — وراح الشفيع فــلم يشفع
وكم قيل مدّد مدى الاصطبار — ومهما عراك فــلا تجزع
وكم ذا أُمدُّ مدى الاصطبار — فان زدت في مدّه يُقطع
ولمــا بكى ساجني رحمة — اجابوا التشفع لــلأدمع
ولكنهم صادفوا عقدة — بامريَ تعيي حجى الألمعي
حكومة لبنان قد راجعت — فرنسا لفكي فــلم تسطع

وراحت فرنسا الى الانكليز تراجعهم جــلّ من مرجع
وقد راجع الانكليز العراق ولليــوم بالامر لم يُصدع
فقلت اعجبوا ايها السامعون ويا ايهــا الخلق قولوا معي
امن قوتي صرت ام ضعفهم خطيراً عـلى دول اربع ؟؟

وعندما اطلق سراحه علم ان الافراج عنه كان بمساعي حكومة العراق في عهد معالي صالح جبر الذي كان وزيراً للداخلية ووكيلا للخارجية كما علم ان الانكليز لم يراجعوا العراق بشأنه بتاتاً ولكن حكومة العراق هي التي ضغطت على الانكليز حتى اطلقوا سراحه فلها منه الشكر والعذر .

●

سير على كل حال !

اليوم رُخّصت بالصعود الىَ ـ السطح وعودي للسجن تسهيلا
الحمد لله قــد سعدت بــان اسير عمقــاً ان لم اسر طولا

من البحر او « البحري » ؟

●

سجنت وكم في السجن مثليَ من حرّ

يقابلنـــا السجان بالنظر الشزر

واشرفت من سجني على البحر قائلًا

من البحر يأتينا الخلاص او «البحري»[١]

---

(١) يشير الناظم الى صديقه الاستاذ يونس بحري الذي كان ينعش آمـال القوميين العرب باذاعاته من برلين.

القبر مشحون !

•

لقد حاول السجانون وضع الناظم في غرفة ضيقة مزدحمة هي قفص حقيقي على سطح ادارة الأمن العام الأفرنسية ولكن لحسن الحظ كانت الغرفة مزدحمة بالمساجين فلم يكن له متسع فيها فاضطروا الى وضعه في غرفة اخف منها بـــلاء واقل سكاناً فقال :

راموا دخولي بسجنٍ كان يخنقني   فعاقني عنه رهط فيه مسجون
كانوا يريدون لي دفناً فانقذني   من محنة الدفن أن القبر مشحون

Hamad Khalifa

اما تاجٌ واما سجن ؟!

●

سجنت وقبلي في العلى سجنوا اخي وآمل في العلياء ان يسجنوا الابنا

اذا لم نورّث تــاج مجد وسؤدد لابنائنا طرا نورثهم سجنا [1]

(١) يشير الناظم الى سجن اخيه المرحوم السيد محمد رضا الصافي في ثورة العراق الاولى سنة ١٩١٩ تلك الثورة التي انتهت بتتويج فيصل الاول ملكاً على العراق ، وقد فر الناظم آنذاك مع صديقه المرحوم معالي سعد صالح رئيس حزب الأحرار حتى بلغا حدود ايران فاتجه المرحوم سعد صالح الى العمارة ومنها ذهب الى الكويت ثم عاد الى العراق اما الناظم فقد ذهب الى ايران واقــام في طهران مدة ثماني سنوات وبعد وصوله الى طهران علم باعتقال السلطات الانكليزية لأخيه وبعد ان قضى اخوه في السجن خمسة اشهر وقد وضع الانكليز المشنقة امامه تهديداً له لانه جعل بيته مركزاً لمؤامرات الثورة اطلقوا سراحه وقد نظم خمسة ابيات في السجن يخاطب بها احد الزعماء وقد زاره فيه وبعد خروجه ارسل الابيات الخمسة الى اخيه ناظم هذا الديوان وطلب منه تخميسها فخمسها في حينها واعادها اليه فنشرها في مجلة لغة العرب للمرحوم العلامة انستاس الكرملي وها هو الاصل والتخميس .

العزم واليأس

●

انـنا في سوى العلى ما رغبنا　　نملأ الكون رهبة ان غضبنا
ما جزعنا للسجن يوم غُلبنا　　ان من رام مثلما قد طلبنا
لا يبالي ان سيق للسجن سوقا
نحن قوم عن العلى ما قصرنا　　حيثما دار كوكب العز درنا
واذا جار حادث الدهر جرنا　　رخصت عندنا النفوس فثرنا
نطلب العز والعلى لا لنبقى
قد خُلقنا دون الورى احرارا　　وامتلكنا التيجان والامصارا
وجعلنا لنـا المعـالي شعارا　　ولقد سامنا العدو احتقارا
فرآنـــا نستسبق الموت سبقا
ان ذلي موتي وعزي حياتي　　ما انثنت للعدو يومـاً قناتي
انا فرع من دوحة المكرمات　　انـا من اسرة كرام أُباة
لا يرون الحياة في الذل ابقى
انا لما أُسرت لم أبدِ ضعفا　　لا ولم ارجُ من عدويَ عطفا
ولقد قلت والردى بيَ حفّـا　　شرعٌ ان يكون موتيَ حتفا
او اراني يكون موتيَ شنقا

سجن وانتظار !

سجنوني شهراً باقبح دار جمعت جحفلاً من الاكدار
ثم قالوا هذا محل انتظار ليس سجناً، فالسجن في غير دار
قلت الانتظار سجن، فسجني يا لبؤسي مضاعف بانتظار

●

اثاث السجن!

رمونا كالبضائع في سجون وعافونا ولم يُبدوا اكتراثا
رمونا في السجون بلا اثاث فاصبحنا لسجنهم اثاثا

●

الظلام المنير !

ارى السجن مهما اسود أفقاً كمنجم
حوى من بديع الماس مجلى النواظر
بكى صاحبي من ليل سجنٍ وسرّني
بداجي ظلام السجن لمعُ الجواهر

العلاج بالكي !

●

حسبت لطول السجن انيَ في قبر   فان يخرجوني منه آمنت بالحشر
فكم وعدوني بالخروج ولم تزل   عيوني مع الموتى الى موعد النشر
من العمر لا يُحسبن ايام محبسي   وان كان منها اليوم اطولَ من عمر
اموت واحيا في يد الموت والرجا   فاخرج من قبر وادخل في قبر
يجدّد لي الآمـال حـارسُ محبسي
فيوقظ لي الآلام من حيث لا يدري
وكم قـال لي صبراً عـلى السجن ضيّقاً
وكيف اصطبار الجالسين عـلى الجمر
من اليأس داوى الناس بالكيّ داءهم
كذاك يداويني ذوو السجن بالصبر

سجين وطليق !

•

قلل السقم من مسافة سيري   واتى السجن لي فصارت اقلا
غير اني وان سجنت ففكري   سائح في الوجود والنفس جذلى
واذا شئت سحت في النفس دهراً   طـائفاً ثَمَّ عالمـاً مستقلا
ان يفتني كونٌ فلي من خيالي   الف كون يسمو على الكون فضلا
لا تضيق السجون بالفكر رحبا   والفضا ضيّق بمن ضاق عقلا
ان كل الاغلال في يد حرّ   لا تساوي في مُوثَق الفكر غلا
فكريَ الحر اودع السجنَ جسمي
واعتزازي قد كلف النفس ذلا

فندق السجن !

●

سجنت وطال بي سجني وكم من
سجين جاءني يوماً وولى

كأني رب نزل صرت القى
من السجناء اصحاباً واهلا

اودّع في الضحى اهلاً كراما
وادعو في المسا ، اهلاً وسهلا

واضحى الرفق بالسجناء دأبي
وتسليتي لهم هماً وشغلا

فيا ضيف السجون كرمت ضيفاً
ويا نزل السجون قبحت نزلا

وكم يومٍ نسيت السجن فيه
فذكرني به ضيف أطلا

طلبت مسلياً منه لهمّي
فلما ان رأى همي تسلى

ويومٍ كنت مسروراً بسجني
ارى السجان فيه اخاً وخلا

اتاني مشفقاً فبكى لما بي
فابكاني فرحت اقول مهلا

بربك لا تذكرني جروحي
فذكر الداء يُنكس منْ أبلاّ

الفت السجن حتى صار بيتي
وصارت بالخطوب النفس جذلى

كطيرٍ عاش في الاقفاص رغداً
فلا تذكر له روضاً وظلا

ويومٍ كنت في سجني وحيداً
فلم احمل من السجناء ثقلا

فقلت بحمد ربي صرت وحدي
اعيش ولو بسجني ، مستقلا

الجرم الشريف !

●

حبست وضاق الحبس بي حين زُج بي
الى غرفــــة ظلمــــاء محكمة السد
فقلت علام الحبس لا انا سارق ولا آثم عمداً ولا دون ما عمد
فجاء دنيٌّ بـــاع عز بلاده ليشتري النزر الخسيس من الرفد
اتى لابساً تحت السواد من الدجى سواداً على قلب، سواداً على جلد
جرى مسرعاً ينساب نحوي مباغتاً
كصلٍ بدا من فوهة الحجر الصلد
وراح يصب السم من فيه ناقعاً على أُذن تستقبل السم كالشهد
مضى شارحاً ذنبي، اذا الذنب انني
خدمت بلادي؛ قلت ويحك من وغد
فانك قـــد البستني تاج سؤدد وملكتني عرش الفخار بلا قصد
فيا لك من نـــذل كريم تجود لي
بتاج العلى يزهو، وقد عشت َتستجدي
ولما رأيت الذنب خدمة موطني حلا السجن حتى خلته جنة الخلد

اعلان الحرب !

●

خسئت انكلترا والله — اعمى مقلتيها
قبرَها في كل ارض حفرته بيديها
سجنتني دون ذنب غير لعني ابويها
أمنت حربي، وسجني يعلن الحرب عليها

Hamad Khalifa

موت المعتدي !

●

ولقد سجنت بكف أجبن امة　　بالوجل تركض للمهات وباليد
ما رمت من سجني الخروج مسارعاً
الا لانظر كيف موت المعتدي

*

غرنـــا بالسراب شر دعـاة　　حين قالوا ، الانكليز عدول
قلت ليت المغول ترجع يوماً　　لترى ما جنته هذي المغول !

*

يصول الانكليز على ضعيف　　ولا يبدون للخصم العنيف
هم المكروب في جسم البرايا　　يفتش كي يحطَّ عـــلى ضعيف

على ان لا يقال له سجن !

●

سجنت بقصر يشبه الخلد، دونه   مناظر جاءت حسبما يشتهي الفن
فأكل وشرب وارتخاء وكل ذا   جميل على ان لا يقال له، سجن

الآن طاب الشنق !

●

حبست ولم اعلم بذنبي فـــاصبحت
لي َ الارض في ضيق وضاق بي َ الافق
ولمـــا علمت الذنب خدمة موطني
حلا السجن في عيني وطاب لي َ الشنق

العقاب الضعيف !

●

حُبست فقص الحبس مني قوادماً ... واجنحة كانت ترف رفيفا
وأثقل حبسي كاهلي فكأنني ... تحملت طوداً للسماء منيفا
ولما علمت الجرم خدمة موطني ... رأى كاهلي حمل الجبال خفيفا
وقلت عقاب الحبس دون جريمتي ... فجرمي يرى هذا العقاب طفيفا
وقد ساءني ضعف العقاب لانني ... تخيلت ان الذنب كان ضعيفا

موسى وفرعون !

●

قد ضاق بي السجن لما جئته وبدت — ليَ المتاعب اشكالاً والوانـــا

ومرّ عهد فصار السجن لي وطناً — ارى به من وُلاة السجن اخوانا

وجـــاء وقت فأولوني مقالده — اذا السجين بأمري كان من كانا

فقلت لله دهري في تصرّفـــه — قد طال سجني حتى صرت سجانا

انا سجين وسجّان فتشهد بي — عيسى وموسى وفرعوناً وهامانا

Hamad Khalifa

قاعدة السجن !

●

خلا السجن هـذا اليوم من كل ساكن
سواي كـأني منـه أسّ بنـاء

فجاء غلام السجن يبدي تعجباً ويبغي من السجان كشف بلائي
وقال له كل المساجين سُرّحوا ففيم نرى هذا رهـين ثواء
فقال له السجان هذا الذي ترى ابونـا ، فـأورى شعلة بدمائي
فقلت على رغم المروءة والعلى اكون ابا السجّـان والسُّجناء

غرفة ام صندوق !

•

اقمت في السجن ويا بئس السجون من مقر
في غرفـــة واطئـــة تحب في الضيف القِصر
يسير فيهـــا راكعاً كل امرء فيهـــا خطر
فهـــي لأقزام بـــني — الحيوان لا بـــني البشر
يمشي عـــلى اربعـــة اذا بهـــا الطويـل مرّ
كأن من يدخلهـــا يندسّ في جوف الُحفر
ومن بـدا منهـا تخـــا — له من القـــبر ظهر
كأنمـــا السقف لضم — ارضهـــا قـــد انحدر
فسقفها والارض شطران — تعـــالى مـــن شطر
وسقفهـــا غطـاء من نـــام وتـاج من عبر
ينـــام سقفها عـــلى من نـــام فيها واستقر
فسقفها الكابوس فو — ق الصدر او طود حجر

تضايق الجالس فيها – ان تمطى او زفر
ان شخر الضيف بها تخال سقفها انفجر
فهي كصندوق بضا – عة ونحن المدّخر
ضيّقة ضاق بها – الفكر كما ضاق النظر
وجار ضبّ هذه ام قبر جن محتفر
كم رمت منها ان أفرّ وهل من القبر مفر
فهي سواء والردى ورودها بلا صدر
دار انتحار هذه كم امل فيها انتحر
قد مرّ لي شهر بها كان من الموت أمر
و « شنتتي »[1] تنظر لي تسألني متى السفر
تشكو اليّ ، مثلما اشكو انا لها الضجر
ليس الغبار فوقها من سفر بل من حضر
قد جلست في جانب – الباب جلوس المنتظر

---

(١) الحقيبة

مسجونـــةٌ مثلي ولا		ذنب سوى ذنب القدر
قـــد سلبوا جوازهـــا		منها فمـــا لهـــا ممرّ
طـــولَ النهار لا نزا -		ل نتبـــادل النظـــر
إخـالهـــا تبكـي وان		لم ارَ دمعهـــا انهمر
تبكي بعين حـــالهـــا		ودمعها قـــد استتر
كادت من الغبـــار ان		تفقد عيناهـــا البصر
رمت صوالـــج القدر		بنا كأننا أكر
فهـــل تعيد قـــذفنا		الى امـاكنٍ أخر
تجـــدد اللعب فـــتر -		مينا ولو الى سقر

نصف مسلم !

●

احارب جنس الانكليز لانني ... وقفت على نصر الحقيقة مخذمي
احاربهم حربي لكل رذيـــلة ... الى كل شيطان ، الى كل أرقم
اخاف اذا ماتوا ، تموت ابالسٌ ... فابقى بلا لعني لهم ،نصفَ مسلم!
تحاربهم روحي و كفي ومنطقي ... وان هم نووا قتلي يحاربهم دمي

يعشن يتامى !

●

وما كنت اخشى ان يفاجئني الردى
فـــاني ِحمـام لا اخـاف ِحمامـــا
ولكنني اخشى اذا « الطبع » لم يُعل
يتـــيمات اشعاري يعشن يتـــامى

ولما اشرف الناظم من شدة المرض على الخطر نقل الى مستشفى سان جورج حيث رأى من العناية به ما يذكره دائماً بالشكر وكان يبدل الشرطي المكلف بحراسته في كل ست ساعات بحارس جديد فقال يصف الرقابة عليه في المستشفى:

لا سلام ولا كلام!

•

ادخلني السجنُ في مصح — جميع اربابه كرام
لكنني قد مُنعت فيه — من ان يحيّيني الانام
يشير طرفي لمن يحيّي — ان لا سلام ولا كلام
ولا التفات ولا انعطاف — ولا لحاظ ولا ابتسام
منبوذَ قوم الهنود احكي — تقربي للورى حرام
أُقيمَ في الباب لي «بليس» — كي لا يُرى منيَ انهزام
لحاظه كلها سباب — ووجهه كله خصام
ملازم لي بلا وداد — كأنه دائيَ العقام
فقلت ما ذاك لي مصح — هذا هو السجن والسلام

اعلان على بابي !

•

السجن امرض لي جسمي فصيّرني   الى مَصحٍّ يداوي برح اوصابي
نسيت سجني وبلواه فذكّرني   به على الباب شرطيّ كبواب
اضحى يوجه لي الانظار عابرة   كأنما هو اعلان على بابي
واصبحت نظرات الناس تشهد لي   أني سجين فتشجيني على ما بي
يرنون لي بعيون ملؤها هلع   كأنني رب إجرام وإرهاب
وان نظرت اليهم هرولوا فزعاً   كأنما انا ليثٌ ، محبسي غابي

المضايقة !

نُقلت من السجون الى مصح كدار الخلد ذي مرأى بهيج
ولكن أوثقوا في الباب كلباً يضايق في الدخول وفي الخروج

●

لا صدق ولا صديق !

فارق انكلترا طلاها حتى بدا وجهها الحقيقي
للهند قد أمّنت طريقاً فدته بالصدق والصديق
فطارت الهند من وراها وهي تحامي عن الطريق

●

فرصة موت !

دنا من الانكليز موتهمُ فحرروا أنفساً اذلوها
لكي تقيهم حرباً مسعّرة اطار احلامهم تلظيها
صاحوا بكل المستعمرين أتت ساعة تحريركم فحيّوها
وراح يدعو لسان حالهم فرصة موت ! فلا تضيعوها

بخلاء كرام !

●

حرّر الانكليز مستعمرات ... حين باتت على شفا الاخطار
كلما فرّ من يد الطفل طير ... قال اطلقته لوجه الباري
منحونا حرية حين مُدّت ... نحو اعناقهم يد الجزار
بخلاءٌ ما دام فيهم حياة ... كرماءٌ في حالة الاحتضار

حتى في الموت !

●

مات من التخمة جار لنا ... وساقه الحرص الى حتفه
مثّل في البطنة انكلترا ... اذ مات واللحمة في كفه

المنبر الخالد !

●

سجنوني دونما ذنب سوى　　انني سامي المنى حر عزيز
لا يضير السجن مثلي ان يكن　　موطني يصبح في حرز حريز
ولئن أشنق تكن مشنقتي　　منبراً يعلن رجم الانكليز

ملحمة السجن

او

الواح واشباح !

●

اری في غربة الانسان سجناً … فكيف بسجن انسان غريب
يزور رهينَ سجن اهلُ قربى … ولكني السجين بـلا قريب
أبشّر عند فتح الباب نفسي … بان ستفوز بالفتح القريب [1]
فمن لي ان أرى يـأساً مريحا … يخلصني من الامل الكذوب
سأقتل جـي آمـالي سريعـا … وارجع منه ذا سيف خضيب
فـان لخـادع الآمـال عقبى … تزيد مرارة القلب الكئيب
وان لوامِـع الآمـال آلٌ … يزيد المحل في القفر الجديب

---

(١) ليس هنا تكرار للقافية فان الاولى بمعني قرابة الرحم والثانية مقابل البعيد .

سيمسكني وقـار اليأس كيلا اراني ُلعبة الامـل اللعوب
واغضي عن سنا الآمال طرفي وادخل ظلمة اليأس الرهيب
فـان اشعة الآمـال تحـكي نصالاً واخزات للقلوب
تقـّطب لي السما بالسحب وجهاً كان لم يكف دنياها قطوبي
وتبسم لي البروق بهـا وكم لي بسحب النفس من برق خلوب
سحائب بـارقـات بالامـاني ولكن باخلات بالسكوب
تسامرني همومي في الدياجـي ويطربني فؤادي بالوجيب
فـكم في السجن من ليل غضوب وكم في السجن من يوم عصيب
وزاد عـليَّ ضيقَ السجن أَني ُحرمت به من الخل الاريب
فـادعو الله تعجيلاً بفكٍّ لسجني او بسجن فتى لبيب
تمنيت الزيارة من قريب وان تك زورة الاجل القريب

خدام السجن !

•

وخدام قساة اغبياء ضعاف العقل اموات القلوب
اشاهد منهم الاطماع حولي تدور تكاد تأكل لي جيوبي
كأني ساكن قبراً أُغذي به الحشرات من شتى الضروب
كأن عيونهم حشرات نهش طلعن عليّ من خلل الثقوب

الجواسيس !

●

افتش لا ارى حولي حبيبا وكم شاهدت حولي من رقيب
اجيل بهم عيون اخي وُثوق فـألقى منهم نظر المريب
هم الخلان لي لا عن وداد هم الاعداء لي لا عن ذنوب
نفوس قـد ربـين على عيوب فمـا يحسن بالامر المعيب
ومن ينمى الى عيب تحرّى عيوب الناس يبحث عن نسيب
وكم قد غرني مرأى نجيبٍ بهم فنكبت بالمرأى النجيب
فمـا في برقهـم الاّ عمـاء وما في سحبهم غير القطوب
سأُبعد عنهم الآمـال حـتى تجيء اليّ بالغدِق السكوب

ليل السجن !

●

نهاري من عبوس السجن ليل   وليلي الف ليل من كروبي
اذا مالت ذُكاء الى غروب   ارى نفسي تميل الى الغروب
افتش في ظلامي عن رجاء   فادخل في ظلام من غيوب
وابحث فيه عن حدس مصيب   فاعثر منه بالسهم المصيب
الا يا ليل ليتك لم تسارع   وليتك ضعت في اقصى الدروب
وليتك قد عثرت بلا مُقيل   وليتك قد دعوت بلا مجيب
وليتك اذ عثرت، عراك كسرٌ   برجلك لم يصادف من طبيب
تسارع في خطاك الي شوقاً   مسارعة المحب الى الحبيب
وتُلقي كل رحلك فوق صدري   وتجثم فوق قلبي كالخطوب
تُجدّ السير منذ الصبح نحوي   فتهجم هجمة الاسد الغضوب
لبست من النهار الغض ثوباً   لتخفى عن عيون المستريب

اراكِ وانت في لونين تبدو | تسير من المغيب الى المغيب
كأنك حية رقطاء تزهو | بثوب دجى وثوب ضحى قشيب
تُبدّل ثوبها في كل ليل | لتجلو حسنها عند الحبيب
الا يا ليل كم لك من شباب | وكم لك كلَّ صبح من مشيب
تشيب بشيبك الاكوان، لكن | شبابك لا يعيد شباب شيب
اقول بكل صبح سوف تفنى | متى ابصرت فحمك في لهيب
اذا بالفحم ينضب باشتعال | وما لمعين فحمك من نضوب
ستبقى بعد ان تفنى شموس | الى ما شاء علام الغيوب
الا يا ليل كم لك من خطوب | وكم لك في الجوانح من ندوب
اتلبس مثلَ رهبان، مسوحا | وقلبك قلب شيطان رهيب
فكم وسعت ثيابك من افاعي | هموم مقلقات بالدبيب
وكم ضمت عقارب من وشاة | بالسنةٍ لوادغ للقلوب
وكم اخفت شروراً كالضواري | محددة المخالب والنيوب
فلو خلعوا ثيابك عنك ابدت | الينا كل انواع العيوب

يلوح إهـابك الضافي ، ظلاماً ويخفي شكل حيوان عجيب
فيالك شكل حيوان عجيب تضمَّن الف حيوان غريب
كـأن الليل جبار عظيم أصيب بالف مكروب مهيب
وما المكروب فيه سوى هوام وآسادٍ ووحشٍ فلاً وذيب
واجرام واحقاد تـنزّى واوهام ودمع نوى سكيب
واحزانٍ وأجرام ويـأس وذكرى عاشق وكرى سليب
واشباحٍ وارواح وجـنٍ وبومٍ مفزعـات بالنعيب
أصيبَ بتلكم الآفات لكن صحيحاً عاش ذا عود صليب
ايا فيلاً ، يمـدّ بكل يوم على الاكوان خرطوم الغروب
فيشرب كل نور ثم يُلقـي مُجاجاً للدجنّة والخطوب
اجبار الظـلام لأنت عبد وان اوتيت سلطان الشعوب
ارى حر النهار يخاف من ان يراك لذاك يسرع بالهروب
تنام عـلى سواعدك البرايا فـتروضعهم بسموم الحليب
وتغمرهم باحـلام كذاب وتسقيهم من الرنق المشوب

تهدهدهم بصمتك وهو يحكي زئيراً صك" اسماع القلوب
وتُطبق جفنهم رعباً ليغفوا متى قابلت بالوجه الغضوب
كأن الافق شدقك رحت منه تكشر عن نجوم كالنيوب
مربّي العالمين لأنت باق وكم خنقت اكفك من ربيب
الا يا ليل حسبك ليل سجني وحسبك عن كروبك لي كروبي
كرهت القبر بعد الموت سجناً وعفت اللبث في الوطن الخصيب
فما ارضى ولو في الخلد حبسا ولو ما بين ازهار وطيب
أيحبس من يحرّم اي حبس وكل مناه تحرير الشعوب
ايحبس شاعر حر رقيق تضايقه النسائم بالهبوب
يرى من جسمه سجناً عليه يكاد يهمّ منه بالوثوب
رأيت السجن مجتمع الرزايا ولا كالسجن للرجل الأديب
وكيف يطيق ضيق السجن حرّ يضيق به فضا الكون الرحيب

رهين المحبسين !

●

رهينُ المحبسين ضنى وفقرٍ وأُحبس : جلّ ذلك من نصيب
لئن أُسجن فمـــا الاقفاص الا لليث الغـــاب او للعندليب
الا يا بلبلاً سجنوك ظلمـــاً فنحت لفرقة الغصن الرطيب
كلانـــا من تـــأ ّلمه يغنّي فننعش صاحب القلب الطروب
لقد اصغى الخليُّ الى غنانـــا ولم يسمع بـــه نغم النحيب
ولو اصغى لنغمتنـــا مليّاً لذاب بذلـــك النغم المذيب
ويا ليث الشرى سجنوك مثلي لدن خافوا وثوبك او وثوبي
لئن كشرتَ للهيجاء نـابـا فـأقـلامي تكشر للحروب
كلانـا صاحبـا صمت مهيب كلانا صاحبا وجـه رعوب
أدبّ على الثرى ضعفاً ولكن ارى الجبناء يقلقهم دبيبي
تُراع حلومهم لصدى عظام ضئيلات تَقضقضُ في جنوبي
اعبّس للضنى فيخيف قوماً عبوسي ثم يشجبهم شحوبي
فكيف بهم اذا سمعوا زئيري وكيف أذا أكـّشر عن نيوبي

وهذه ابيات قالها عند خروجه من السجن :

إفراج كالسجن !

كنت اخشى في السجن إن تأت بشرى
بفكاكي كي أصبْ لها بالجنون
اطلقوني من بعد ما اعتدت سجني فكأني مجدَّداً سجنوني

العقل كالجنون !

شكرت ولاة سجن اطلقوني وقلت همُ ذوو خير ودين
وعدت اصبّ فوق العقل غيظي لأن العقل اصبح كالجنون
أطلاق السجين يُعد خيراً ويُنسى شر امساك السجين

الحرية إدام !

من بعد سجن اربعين يوماً كأنهن سجن الف عام
اصبحت ان اكلت خبزي حافاً جعلت من حريتي ، إدامي

الوفاء !

رجعت الى سجني رجوعي الى قبري
وفاءً لذكرى البؤس فيه مدى شهر
وقلت لعل الميت اذ يحشرونه
يعود وفاءً بالعهود الى القبر



دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت – لبنان

صدر حديثاً :

باكستان دولة ستعيش	الدكتور عمر فروخ	١٥٠
تاريخ العرب المطول (الاول)	بقلم حتي وجرجي وجبور	٤٠٠
» » » (الثاني)	» » » »	٥٠٠
» » » (الثالث)	» » » »	٦٠٠
النظرية العامة للموجبات والعقود (الاول)	الدكتور صبحي محمصاني	٨٠٠
» » » » (الثاني)	» » »	١٠٠٠
الوحدة في الشرق	حسن الاعظمي	١٧٥
الرمزية والادب العربي الحديث	انطون غطاس كرم	٢٠٠
نفسية الرسول العربي	لبيب الرياشي	٢٥٠
درر الحكايات والفكاهات	حسن الاعظمي	٠٥٠
تركيا الحديثة	محمد عزة دروزة	٥٠٠

مطابع دار الكشاف – بيروت